

يَقِينُ الْخَلَاصِ

المحاضرة ٢: اليقين يُعَزِّزُ التَّقْدِيسَ

أ.ر. سي. سرول

سَنَتَابِعُ الْآنَ دِرَاسَتَنَا لِمَسْأَلَةِ يَقِينِ الْخَلَاصِ. فِي مُحَاضَرَتِنَا الْأُولَى، تَكَلَّمْنَا عَنِ التَّحْذِيرَاتِ الْمُخِيفَةِ الَّتِي وَجَّهَهَا يَسُوعُ لِلْكَنِيسَةِ، بِقَوْلِهِ إِنَّهُ فِي يَوْمِ الدِّينُونَةِ، أَيُّ فِي الْيَوْمِ الْأَخِيرِ، سَيَأْتِي كَثِيرُونَ إِلَيْهِ قَائِلِينَ: "يَا رَبُّ، يَا رَبُّ"، أَيْ أَنَّهُمْ سَيُعْلِنُونَ أَنَّهُمْ عَلَى عِلَاقَةٍ شَخْصِيَّةٍ بِهِ، لَكِنَّهُ سَيَرْفُضُهُمْ قَائِلًا: "أَذْهَبُوا عَنِّي، إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ"، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ الْإِثْمَ وَيَتَمَرَّدُونَ. عِنْدَمَا نَنْظُرُ هَذَا السُّؤَالَ: "كَيْفَ يُمَكِّنُنِي أَنْ أَعْرِفَ مَا إِذَا كُنْتُ مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَامُوا بِاعْتِرَافِ إِيمَانٍ مُزَيَّفٍ وَهُمْ يَطُنُّونَ أَنَّهُمْ فِي حَالَةِ النِّعْمَةِ مَعَ الْمَسِيحِ؟ كَيْفَ يُمَكِّنُنِي أَنْ أُمَيِّزَ بَيْنَ ذَلِكَ، وَبَيْنَ شَخْصٍ يَعِيشُ حَقًّا فِي حَالَةِ النِّعْمَةِ وَلَا يَقُومُ بِاعْتِرَافِ مُزَيَّفٍ؟" يُمَكِّنُ أَيْضًا أَنْ نَتَوَسَّعَ فِي السُّؤَالَ؛ السُّؤَالَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ نَنْظُرَهُ أَوَّلًا هُوَ: "هَلْ مَسْأَلَةُ يَقِينِ الْخَلَاصِ مُمَكِّنَةٌ؟ وَإِنْ كَانَتْ مُمَكِّنَةٌ، فَهَلْ هِيَ أَمْرٌ مَرْعُوبٌ فِيهِ؟"

قَدْ تَبَدُّو هَذِهِ الْأَسْئَلَةَ بَسِيطَةً وَأَسَاسِيَّةً لِإِيمَانِنَا فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ. وَلَكِنْ عَلَيْنَا أَنْ نُدْرِكَ أَنَّهُ فِي تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ تَمَّتْ إِثَارَةُ جَدَالَاتٍ كَبِيرَةٍ بِشَأْنِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ. فَالْكَنِيسَةُ الْكَاثُولِيكِيَّةُ مَثَلًا، فِي الْقَرْنِ ١٦ فِي مَجْمَعِ ثِرَنْتِ، وَفِي الْجُلُوسَةِ ٦، أَتَكَرَّتْ بِوُضُوحٍ الْإِمْكَانِيَّةَ الطَّبِيعِيَّةَ لَدَى الْمَرْءِ بِأَنْ يَبْلُغَ يَقِينِ خَلَاصِهِ إِلَّا فِي ظُرُوفِ نَادِرَةٍ. وَمَا عَلَّمْتُهُ رُومًا بَعْدَ ذَلِكَ، بِحَسَبِ الْيَسُوعِيِّينَ، هُوَ أَنَّ الْأَشْخَاصَ الْوَحِيدِينَ الَّذِينَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَبْلُغُوا مَرْتَبَةَ يَقِينِ خَلَاصِهِمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ هُمُ الْقَدِيدُسُونَ الْمُمَيِّزُونَ، الَّذِينَ يُعْطِيهِمُ اللَّهُ إِعْلَانًا خَاصًّا عَنِ مَكَاتِبِهِمْ أَمَامَهُ. لَكِنْ بَعِيدًا عَنِ هَذِهِ الْحَالَاتِ النَّادِرَةِ، فَإِنَّ الْعُضُوءَ الْعَادِيَّ فِي الْكَنِيسَةِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَيَقَّنَ مِنْ خَلَاصِهِ. وَالسَّبَبُ، بِحَسَبِ الْكَنِيسَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ، هُوَ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْيَقِينِيَّاتِ فِي نِهَآيَةِ الْمَطَافِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى آسَاسِ التَّخْمِينِ الْبَشَرِيِّ، وَالرَّأْيِ الْبَشَرِيِّ، وَأَفْكَارٍ نَابِعَةٍ مِنْ قُلُوبِ أَشْخَاصٍ يَصِفُهُمُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ عَلَى أَنَّهُمْ مُتَاصِّلُونَ فِي الْغُرُورِ. يَقُولُ لَنَا الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ إِنَّ الْقَلْبَ أَخْدَعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. إِذَا، مِنْ السَّهْلِ جِدًّا عَلَيْنَا عِنْدَمَا نَتَأَمَّلُ فِي حَالَةِ نَفُوسِنَا وَحَالَةِ خَلَاصِنَا أَنْ نَخْدَعَ أَنْفُسَنَا، وَأَنْ نَبْنِي ثِقَتَنَا عَلَى مَجَرَّدِ آرَاءٍ.

إِذَا، هَذِهِ هِيَ عَقِيدَةُ الْكَنِيسَةِ، وَهِيَ أَنَّ يَقِينِ الْخَلَاصِ لَيْسَ مُمَكِّنًا فِعْلًا مِنْ دُونِ إِعْلَانٍ خَاصٍّ مِنَ اللَّهِ. لَكِنْ بِالطَّبَعِ، لَيْسَتْ الْكَنِيسَةُ الْكَاثُولِيكِيَّةُ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تُنَكِّرُ عَقِيدَةَ يَقِينِ الْخَلَاصِ، كَمَا عَلَّمَهَا الْمُصْلِحُونَ فِي الْقَرْنِ ١٦. فَهُنَاكَ الْبُرُوسْتَانْتِيُونَ الْآتُونَ مِنْ خَلْفِيَّةٍ تُعْرَفُ بِشِبْهِ الْبِيلاجِيَّةِ. عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، تُعَلِّمُ الْأَرْمِينِيَّةُ أَنَّهُ يُمَكِّنُ لِلْمَرْءِ أَنْ يَتَيَقَّنَ مِنْ خَلَاصِهِ الْيَوْمَ، وَلَكِنْ لَا يُوجَدُ يَقِينٌ لِلْعَدِ، لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّهُ مِنَ الْمُمْكِنِ لِلْإِنْسَانِ الَّذِي آمَنَ

مَرَّةً أَنْ يَسْقُطَ فِي الخُطِيَّةِ وَيَفْقَدَ خَلَاصَهُ. لِذَا، عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ كَانَتْ عَقِيدَةُ يَقِينِ الخَلَاصِ مُرْتَبِطَةً ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِعَقِيدَةِ مُثَابَرَةِ القِدِّيسِينَ.

إِذَا، ثَمَّةَ مَجْمُوعَةٍ تَقُولُ إِنَّهُ لَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَتَيَقَّنَ مِنَ الخَلَاصِ، فِيمَا تَقُولُ مَجْمُوعَةٌ أُخْرَى إِنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لَكَ يَقِينٌ مُخَدُّودٌ، وَلِفَتْرَةٍ مُخَدُّودَةٍ، لَكِنَّكَ لَا تَعْلَمُ مَا سَتَكُونُ عَلَيْهِ حَالَتِكَ النِّهَايِيَّةُ. ثُمَّ لَدَيْنَا اللّاهُوتُ المُصْلِحُ الَّذِي يُعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَعْرِفَ اليَوْمَ فَحَسْبُ أَنَّكَ فِي حَالَةِ النِّعْمَةِ، بَلْ إِنَّهُ يُمَكِّنُكَ أَنْ تَتَأَكَّدَ تَمَامًا مِنْ أَنَّكَ سَتَبْقَى فِي حَالَةِ النِّعْمَةِ عِنْدَ مَمَاتِكَ. لِذَا، فَإِنَّ هَذِهِ النِّظَرِيَّاتِ اللّاهُوتِيَّةِ المُخْتَلِفَةَ المُتَعَلِّقَةَ بِالخَلَاصِ لَهَا نَتَائِجٌ عَمَلِيَّةٌ قَوِيَّةٌ جِدًّا. أَنَا أَظُنُّ أَنَّ الإِيمَانَ المُصْلِحَ بَيْنَمَا يُعْلَمُ أَنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ تَتَيَقَّنَ مِنَ الخَلَاصِ، يُبَيِّنُ أَيْضًا أَنَّهُ تَوْجَدُ يَقِينِيَّاتٌ مُزَيَّفَةٌ. عِنْدَئِذٍ يَزِدَادُ الأَمْرَ تَعْقِيدًا، لِأَنَّهُ عَلَيْكَ أَنْ تَسْأَلَ نَفْسَكَ: كَيْفَ أَعْلَمُ أَنَّ يَقِينِي حَقِيقِيٌّ وَلَيْسَ مُزَيَّفًا؟ سَتَتَنَاوَلُ هَذِهِ الأَسْئَلَةَ لِاحِقًا. لَكِنَّ النُّقْطَةَ الأُولَى، مِنْ وَجْهَةِ النِّظَرِ المُصْلِحَةِ لِلْمَسْأَلَةِ، هِيَ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَتَمَتَّعَ بِيَقِينِ الخَلَاصِ فَحَسْبُ، بَلْ إِنَّ اللَّهَ بِكَلِمَتِهِ يَأْمُرُنَا بِأَنْ نَتَمَتَّعَ بِهِ.

دَعُونِي أَتَوَقَّفُ قَلِيلًا. أَذْكَرُ حِينَ كُنْتُ فِي كَلِيَّةِ اللّاهُوتِ أَنَّ أَحَدَ زَمَلَائِي فِي كَلِيَّةِ اللّاهُوتِ جَالَ فِي حَرَمِ الجَامِعَةِ، وَقَامَ بِاسْتِظْلَاجِ رَأْيِ سَائِلِ التَّلَامِيذِ الأَخْرَيْنِ وَكُلَّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الكَلِيَّةِ إِنْ كَانَ مُتَأَكِّدًا مِنْ خَلَاصِهِ. فَأَجَابَ حَوَالِي ٩٠٪ مِنَ التَّلَامِيذِ عَنِ هَذَا السُّؤَالِ سَلْبًا، قَائِلِينَ إِنَّهُمْ لَيْسُوا واثِقِينَ مِنْ خَلَاصِهِمْ. وَجَاءَ رَدُّ فِعْلِهِمْ عَنيفًا إِذْ قَالُوا إِنَّهُ مِنَ التَّكْبِيرِ أَنْ يَدَّعِي أَحَدُهُمْ أَنَّهُ مُتَأَكِّدٌ مِنْ خَلَاصِهِ. إِذَا، فَفِكْرَةُ التَّيَقُّنِ مِنَ الخَلَاصِ لَيْسَتْ فَضِيلَةً بَلْ عَيْبٌ. وَلَمْ أُنَسْ أَبَدًا ذَلِكَ المُشْهَدَ حِينَ كُنْتُ فِي كَلِيَّةِ اللّاهُوتِ الَّذِي بَيَّنَّ أَنَّهُ مِنَ السَّلْبِيِّ أَنْ نَسْعَى وَرَاءَ يَقِينِ الخَلَاصِ لِأَنَّ الأَمْرَ يَثْرِكُنَا فِي حَالَةٍ مِنَ التَّكْبِيرِ. وَبِالطَّبَعِ، إِنَّهَا لَقِمَّةُ التَّكْبِيرِ أَنْ تَكُونَ مُتَأَكِّدًا مِنْ امْتِلَاكِكَ أَمْرًا لَا تَمْلِكُهُ فِعْلًا. وَإِنْ كُنْتَ مُتَأَكِّدًا مِنْ خَلَاصِكَ فِي حِينِ أَنَّكَ لَسْتَ مُحَلِّصًا، فَهَذَا تَكْبِيرٌ أَيْضًا. لَكِنَّ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، إِنْ كَانَ صَحِيحًا أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُنَا بِأَنْ نَسْعَى وَرَاءَ اليَقِينِ، فَإِنْ لَمْ نَفْعَلْ، أَوْ إِنْ قُلْنَا إِنَّ الأَمْرَ غَيْرُ مُمَكِّنٍ، فَإِنَّا نَكُونُ حَقًّا مُتَكَبِّرِينَ لِأَنَّنَا نُشَوِّهُ بِذَلِكَ مُصْداقِيَّةَ اللَّهِ نَفْسِهِ.

إِذَا، فَلِنَنْظُرْ إِلَى بَعْضِ النُّصُوصِ المُهِمَّةِ الَّتِي نَحْدُهَا فِي العَهْدِ الجَدِيدِ فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِهِذِهِ المُسْأَلَةُ. فِي رِسَالَةِ بَطْرُسَ الثَّانِيَّةِ، فِي الأَصْحَاحِ ١ وَفِي الآيَةِ ١٠، نَقْرَأُ هَذِهِ الكَلِمَاتِ عَنِ لِسَانِ الرُّسُولِ بَطْرُسَ: "لِذَلِكَ بِالأَكْثَرِ اجْتَهِدُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ تَجْعَلُوا دَعْوَتَكُمْ وَاخْتِيَارَكُمْ ثَابِتِينَ. لِأَنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ، لَنْ تَرَلُّوا أَبَدًا. لِأَنَّهُ هَكَذَا يُقَدَّمُ لَكُمْ بِسِعَةِ دُخُولٍ إِلَى مَلَكُوتِ رَبَّنَا وَمُحَلِّصِنَا يَسُوعَ المُسِيحِ الأَبَدِيِّ". هُنَا، وَبِدُونِ أَيِّ التَّبَاسِ، لَيْسَ الأَمْرُ الرُّسُولِيُّ أَنْ نَبْحَثَ عَنِ يَقِينِ اخْتِيَارِنَا بِطَرِيقَةٍ مُتَعَجَّرِفَةٍ أَوْ بِلا اِهْتِمَامٍ، وَإِنَّمَا يَقُولُ إِنَّهُ عَلَيْنَا أَنْ نَجْعَلَ دَعْوَتَنَا وَاخْتِيَارَنَا ثَابِتِينَ عَبْرَ السَّعْيِ بِاجْتِهَادٍ

وَرَاءَ الْأَمْرِ. إِذَا، يَقُولُ لَنَا الرَّسُولُ بَطْرُسُ إِنَّ الْأَمْرَ مَهْمٌ جِدًّا، ثُمَّ يَتَابِعُ وَيُطْلِعُنَا عَلَى السَّبَبِ -سَتَنْتَرَقُ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ- لِأَجْلِ أَسْبَابٍ عَمَلِيَّةٍ، يَجِبُ أَنْ نَسْعَى إِلَى جَعْلِ دَعْوَتِنَا وَاخْتِيَارِنَا ثَابِتَيْنِ.

الكثير من الأشخاص لا يؤمنون بالاختيار، وينسون أن هذا مفهوم كتابي، لكي أسمع دائمًا أناسًا يسألون: "كيف تعلم إن كنت مختارًا أو لست كذلك؟" سوف نتطرق إلى هذه المسألة أيضًا في هذه السلسلة. لكي أريد القول في هذا الصدد إلي عندما أتكلّم مع أشخاص يفلقهم هذا السؤال ويصارعون بشأن مفهوم الاختيار، فأبي أقول لهم إن ما من سؤال من المهم أن يحسموه في حياتهم المسيحية أكثر من هذا السؤال: "هل أنا من بين المختارين؟" لأننا إن كنا نفهم مبدأ الاختيار جيدًا، وإن كنا نعلم أننا من بين المختارين، فإن هذا الأمر يعطينا راحة كبيرة بينما نتمم خلاصنا بحُوفٍ ورعدة، وبينما نواجه الضيقات العديدة الموضوعّة أمامنا في العالم المسيحي.

تذكرون الرسالة التي كتبها بولس والتي استوحينا النشيد منها: "لأنني عالم بمن آمنْتُ، وموقنٌ أنه قادرٌ أن يحفظ وديعتي إلى ذلك اليوم". بولس نفسه يتكلّم عن ثقته بمستقبله، لأنه يعرف جيدًا أين وضع ثقته، وأين وضع إيمانه. وهو لم يضع ثقته في قدرته على المثابرة، ولا في قدرته على إنهاء السباق، لكنه وضع ثقته في ذلك الذي آمن به، عالمًا أنه قادرٌ أن يحفظه. لكن في الوقت نفسه، يقول بطرس هنا: "اجتهدوا... أن تجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتين". إن كنا مدعوين لجعل اختيارنا ثابتًا، فهذا يعني أننا قادرون أن نجعل اختيارنا ثابتًا. يجب أن نفدّر أن نعرف ما إذا كنا من بين المختارين. وبينما نتقدّم في هذه المحاضرات، سنتكلّم عن كيفية القيام بذلك، أما الآن، فأريد أن نذكر أنّ اليقين ليس أمرًا اختياريًا، فاليقين أمرٌ لا يجدر بنا أن نُوجّهه حتى نهاية حياتنا المسيحية، وإنما هو أمرٌ يجدر بنا أن نسعى وراءه جاهدين الآن لكي نحسمه ونعلم أننا من بين المختارين، وأننا ضمن ملكوت الله، وأن الأب تبتّنا في بيتيه، وأننا في المسيح، وأن المسيح هو حقًا فينا.

أحد الأمور التي سبق لنا أن رأيناها هو اليقين الزائف، المتعلّق بهؤلاء الأشخاص الذين سيمنّون أمام المسيح في يوم الدينونة قائلين: "يا رب، يا رب"، ومن الواضح أنّ لديهم يقينًا زائفًا. إذا، عندما يعلن يسوع أنّ يقينهم زائف، ويعلن أنه لم يعرفهم قط، ويطردهم من محضره، نحن نتدكّر السبب -لماذا؟ لأنهم كانوا فاعلي إثم، وكانوا أشخاصًا متمردين، وكانوا بلا ضمير، كما رأينا في مثل الزارع.

دعوني أتوقّف قليلاً وأتكلّم بشكلٍ عابرٍ، لأذكركم بمفهومنا للتبرير. نحن نعلم أننا لسنا محلّصين بأعمالنا. نحن نقول إنّنا تبررنا بالإيمان وحده، إذا، نحن لا نتكل على أعمالنا لندخلنا إلى السماء. لكننا ندكّر أيضًا أنه في القرن ١٦ قال المصلحون العظماء مثل مارتين لوتر إنّنا تبررنا بالإيمان وحده، لكن ليس بإيمان يظل وحده. في العقيدة الكاثوليكية، يجب أن يكون لديك إيمان لكي تتبرر، لكن يجب أن تكون لديك أعمال أيضًا. إذا، الإيمان زائد

الأعمال يُساوي التبرير. لَكِنْ بِحَسَبِ النَّظَرَةِ الْبُرُوتَسْتَانْتِيَّةِ، الإِيمَانُ يُساوي التبريرَ زَائِدَ الأَعْمَالِ، أَيَّ أَنَّ الأَعْمَالَ هِيَ النَّتِيجَةُ وَاسْتِعْلَانُ لِحَالَةِ النِّعْمَةِ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا. هَذِهِ الأَعْمَالُ مَوْجُودَةٌ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ مِنَ المُعَادَلَةِ، وَالأَعْمَالُ الَّتِي أَفْعَلُهَا فِي حَيَاتِي الْمَسِيحِيَّةِ لَا تُضِيفُ شَيْئًا إِلَى تَبْرِيرِي. أَعْمَالُ الْبِرِّ الْوَحِيدَةُ الَّتِي تُبْرِّرُنِي هِيَ أَعْمَالُ الْمَسِيحِ. إِذَا، عِنْدَمَا نَقُولُ إِنَّنا تَبَرَّرْنَا بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ، فَنَحْنُ نَقْصِدُ بِذَلِكَ أَنَّنا تَبَرَّرْنَا بِالْمَسِيحِ وَحْدَهُ وَبِأَعْمَالِهِ، فَأَعْمَالِي لَا تُحْسَبُ شَيْئًا فِي تَبْرِيرِي.

هنا، ثَمَّةَ أَشْخَاصٍ يَقُولُونَ: "أُظُنُّ أَنَّ هَذَا يَعْنِي أَنَّهُ لَا يَجْدُرُ بِي أَنْ أُعْطِيَ أَيَّ ثَمَرٍ. لَيْسَ عَلَيَّ أَنْ أُحْمَلَ أَيَّ ثَمَرٍ يَعْكُسُ بَرِّي، لِأَنِّي مُخَلَّصٌ بِالْإِيمَانِ". لَكِنْ تَذَكَّرُوا أَنَّ الإِيمَانَ الَّذِي يُبْرِّرُ، وَكَمَا يَقُولُ لَنَا يَعْقُوبُ فِي رِسَالَتِهِ، وَكَمَا حَاوَلَ لَوْثَرُ أَنْ يُبْرِهِنَ، لَيْسَ إِيْمَانًا مَيْتًا، إِنَّهُ "فِيدِيسُ فِيفَا" (*fides viva*)، إِيْمَانٌ حَيٌّ وَفَعَالٌ. الإِيْمَانُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يَرِبُطُنَا بِالْمَسِيحِ يَتَجَلَّى دَائِمًا وَأَبَدًا بِالْأَعْمَالِ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْنَا أَعْمَالٌ هُنَا، فَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّهُ لَيْسَ لَدَيْنَا إِيْمَانٌ هُنَا. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْنَا إِيْمَانٌ هُنَا، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّنا لَسْنَا مُبْرَرِينَ. لَكِنْ لَا تُفَسِّرُوا ذَلِكَ بِالْقَوْلِ إِنَّهُ عَلَيْنَا أَنْ تَتَبَرَّرُوا بِالْأَعْمَالِ، فَالْأَعْمَالُ لَا تُبْرِّرُكُمْ. الإِيْمَانُ يَرِبُطُنَا بِالْمَسِيحِ، لَكِنْ إِنْ كَانَ الإِيْمَانُ صَادِقًا، إِنْ كَانَ الإِيْمَانُ حَقِيقِيًّا، فَلَنْ تَأْتِي فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ قَائِلًا: "يَا رَبُّ، يَا رَبُّ" فَيَنْظُرُ إِلَيْكَ وَيَدْعُوكَ بِفَاعِلِ الإِثْمِ، وَإِنَّمَا سَتَأْتِي بِثَمَرٍ.

قَدْ تَظُنُّ أَنَّ أَسْهَلَ طَرِيقَةَ لِحُلِّ مَسْأَلَةِ الْيَقِينِ الْخُلَاصِ تَعْتَظَلُّ مِرَاقَبَةَ الثَّمَرِ، أَيَّ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى ثَمَرِ حَيَاتِكَ لِتُحَدِّدَ مَا إِذَا كَانَ يَعْكُسُ أَوْ يُبَيِّنُ إِعْلَانًا دَائِمًا لِإِيْمَانِكَ. وَهَذَا أَحَدُ الأُمُورِ الْمُرْعَبَةِ فِي كَوْنِكَ مُؤْمِنًا، لِأَنَّ لَا أَحَدَ بَيْنَنَا يَسْأَلُكَ تَمَامًا بِمِلءِ مَا يَقُولُ إِنَّهُ يُؤْمِنُ بِهِ – لَا أَحَدٌ مِمَّا يَفْعَلُ ذَلِكَ. وَإِنْ رَكَزْتَ اثْنَاهَا عَلَى أَعْمَالِكَ بِكُلِّ بَسَاطَةٍ، فَفِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ يُصِحُّ الْيَقِينُ الْحَقِيقِيُّ مُتَقَلِّبًا جِدًّا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ لَكِنْ يَجْدُرُ بِنَا أَنْ نُرَاقِبَ حَيَاتِنَا – كَمَا يَقُولُ لَنَا الْعَهْدُ الْجَدِيدُ، وَسَاتَطَرَّقُ إِلَى الأَمْرِ بَعْدَ قَلِيلٍ – كَمَا أَنَّهُ يَجْدُرُ بِنَا أَنْ نُرَاقِبَ ثَمَرَنَا لِتَتَأَكَّدَ مِنْ حَالَةِ نُفُوسِنَا.

لَكِنَّا نُسِيءُ فَهَمَّ كَلَامِ بَطْرُسَ إِنْ تَوَصَّلْنَا إِلَى هَذَا الإِسْتِنْتِاجِ، وَهُوَ أَنَّهُ عَلَيْنَا أَنْ نُعْطِيَ ثَمَرًا لِكَيْ نَحْضَلَ عَلَى الْيَقِينِ. لَكِنْ عِنْدَمَا يَقُولُ لَنَا بَطْرُسُ أَنْ نَجْتَهِدَ لِتَجْعَلَ اخْتِيَارَنَا وَدَعْوَتَنَا ثَابِتِينَ، فَإِنَّ السَّبَبَ الَّذِي يَدْفَعُنَا إِلَى السَّعْيِ وَرَاءَ الْيَقِينِ هُوَ أَنْ نُعْطِيَ ثَمَرًا، وَهَذَا أَمْرٌ يَجِبُ أَلَّا يَفُوتَنَا. لَيْسَ الْمَقْصُودُ بِذَلِكَ أَنْ نُحْمَلَ ثَمَرًا لِكَيْ نَتَأَكَّدَ مِنْ خُلَاصِنَا، وَإِنَّمَا يَجِبُ أَنْ نَتَأَكَّدَ مِنْ أَنْ نَكُونَ مُؤْمِنِينَ يُحْمَلُونَ ثَمَرًا. لِأَنَّ الْإِنْسَانَ ذَا الرَّأْيَيْنِ، كَمَا رَأَيْنَا سَابِقًا، مَحْمُولٌ بِكُلِّ رِيحِ تَعْلِيمٍ. وَهَنَّاكَ الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ، كَمَا سَتَرَى لِأِحْقَاقًا، قَدْ اهْتَدَوْا فَعَلًا إِلَى الْمَسِيحِ لَكِنْ لَيْسَ لَدَيْهِمْ يَقِينٌ الْخُلَاصِ، لِذَا، فَإِنَّهُمْ فِي حَالَةٍ تَجْعَلُهُمْ فَرِيسَةً سَهْلَةً أَمَامَ الْعُدُوِّ لِأَيَّتِي وَدَشْتِكِي عَلَيْهِمْ وَيُعِيقُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الْمَسِيحِيَّةِ. سَوْفَ يَأْتُونَ بِثَمَرٍ، لَكِنَّ الثَّمَرَ سَيَكُونُ ضَنْبِيلاً، لِأَنَّهُمْ لَا يَعِيشُونَ الْحَيَاةَ الْمَسِيحِيَّةَ مِنْ مُنْطَلَقِ ثِقَتِهِمْ بِمَكَانَتِهِمْ أَمَامَ اللَّهِ.

إِذَا، مَا يَقُولُهُ بَطْرُسُ هُنَا بِطَرِيقَةٍ عَمَلِيَّةٍ جِدًّا هُوَ: "احْسِمُوا الْأَمْرَ لِكَيْ تَأْتُوا بِثَمَرٍ". اسْمَعُوا مَا يَقُولُهُ بِشَأْنِ هَذِهِ النُّقْطَةِ نَفْسَهَا فِي الْآيَةِ ٥: "وَلِهَذَا عَيْنِهِ - وَأَنْتُمْ بَادِلُونَ كُلَّ اجْتِهَادٍ - قَدَّمُوا فِي إِيمَانِكُمْ فَضِيلَةً، وَفِي الْفَضِيلَةِ مَعْرِفَةً، وَفِي الْمَعْرِفَةِ تَعَفُّفًا، وَفِي التَّعَفُّفِ صَبْرًا، وَفِي الصَّبْرِ تَقْوَى، وَفِي التَّقْوَى مَوَدَّةٌ أَخَوِيَّةٌ، وَفِي الْمَوَدَّةِ الْأَخَوِيَّةِ مَحَبَّةٌ. لِأَنَّ هَذِهِ إِذَا كَانَتْ فِيكُمْ وَكَثُرَتْ، تُصَيِّرُكُمْ لَا مُتَكَاسِلِينَ وَلَا غَيْرَ مُثْمِرِينَ". هَذِهِ هِيَ قَائِمَةُ بَطْرُسٍ. إِنْ تَأَمَّلْتُمْ فِي الْفَضَائِلِ الَّتِي يُعَدِّدُهَا هُنَا فَاتَّكُمُ تَجِدُونَهَا شَبِيهَةً جِدًّا بِقَائِمَةِ أُخْرَى نَجِدُهَا فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ: إِنَّهَا الْقَائِمَةُ الَّتِي يُعَلِّمُنَا الرَّسُولُ بُولُسُ، وَالَّتِي تُسَمِّيهَا عَادَةً "ثَمَرُ الرُّوحِ". وَمُبَاشَرَةٌ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ بَطْرُسُ شَعْبَهُ بِأَنْ يَجْتَهِدُوا لِيُقَدِّمُوا الْفَضِيلَةَ إِلَى الْإِيمَانِ وَاللُّطْفِ وَالْمُتَابَرَةِ وَالصَّبْرِ وَالْمَحَبَّةِ، وَكُلِّ تِلْكَ الْأُمُورِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي تُسَمِّيهَا "ثَمَرُ الرُّوحِ"، فِي هَذَا السِّيَاقِ نَفْسِهِ يَقُولُ: "لِذَلِكَ اجْتَهِدُوا... أَنْ تَجْعَلُوا دَعْوَتَكُمْ وَاجْتِهَادَكُمْ ثَابِتَيْنِ"، لِكَيْ تَتَقَدَّمُوا فِي هَذِهِ الْأُمُورِ". إِذَا، السَّبَبُ الْعَمَلِيُّ لِدَعْوَتِنَا إِلَى التَّيَقُّنِ مِنْ خَلَاصِنَا وَإِلَى أَنْ نَحْسِمَ الْأَمْرَ بِأَنْفُسِنَا، هُوَ أَنْ نَكُونَ مُثْمِرِينَ، وَأَنْ نَكُونَ مُؤْمِنِينَ يُعْطُونَ ثَمَرًا.

فَلْتَرْجِعْ إِلَى الرِّسَالَةِ الْأُولَى الَّتِي كَتَبَهَا بَطْرُسُ. فِي الْأَصْحَاحِ ٢، وَالْآيَةِ ١ مِنْ رِسَالَتِهِ الْأُولَى يَقُولُ: "فَاطْرَحُوا... إِنَّهُ يَتَكَلَّمُ عَنْ هَؤُلَاءِ 'مَوْلُودِينَ ثَانِيَةً، لَا مِنْ زَرْعٍ يَفْتَى، بَلْ مِنْ مِمَّا لَا يَفْتَى، بِكَلِمَةِ اللَّهِ الْحَيَّةِ الْبَاقِيَةِ إِلَى الْأَبَدِ"، ثُمَّ يَتَابِعُ قَائِلًا: إِذَا، بِمَا أَنْتُمْ وُلِدْتُمْ ثَانِيَةً،

فَاطْرَحُوا كُلَّ حُبِّهِ وَكُلِّ مَكْرٍ وَالرِّيَاءِ وَالْحَسَدِ وَكُلِّ مَذْمَمَةٍ، وَكَاطْفَالٍ مَوْلُودِينَ الْآنَ، اسْتَهُوا اللَّبَنَ الْعَقْلِيَّ الْعَدِيمَ الْغِشَّ لِكَيْ تَنْمُوا بِهِ، إِنْ كُنْتُمْ قَدْ دُقْتُمْ أَنَّ الرَّبَّ صَالِحٌ. الَّذِي إِذْ تَأْتُونَ إِلَيْهِ، حَجْرًا حَيًّا مَرْفُوضًا مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ مُخْتَارًا مِنَ اللَّهِ كَرِيمًا، كُونُوا أَنْتُمْ أَيْضًا مَبْنِيِّينَ - كَحِجَارَةِ حَيَّةٍ - بَيْتًا رُوحِيًّا، كَهَنُوتًا مُقَدَّسًا، لِتَقْدِيمِ ذَبَائِحِ رُوحِيَّةٍ مَقْبُولَةٍ عِنْدَ اللَّهِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ.

ثُمَّ يَقُولُ: "فَلَكُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ تُؤْمِنُونَ"، هُوَ، أَيُّ الْمَسِيحِ، "ثَمِينٌ". سَيَكُونُ هَذَا وَاحِدًا مِنْ أَهَمِّ مَفَاتِيحِ نَيْلِ الْخَلَاصِ، أَنْ نُدْرِكَ كَيْفَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى الْمَسِيحَ. بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ تُؤْمِنُونَ، إِنَّهُ ثَمِينٌ.

مَرَّةً أُخْرَى، دَعَوْنِي أَذْكَرُكُمْ بِأَنَّ بَطْرُسَ يُوجِّهُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ إِلَى الْمُخْتَارِينَ. إِنَّهُ يَكْتُبُ هَذَا التَّعْلِيمَ الرَّسُولِيَّ لِلْمُخْتَارِينَ، وَيُعَلِّمُ الْمُخْتَارِينَ مَا مَعْنَى أَنْ يَكُونُوا مُخْتَارِينَ، وَمَا يُفْتَرَضُ أَنْ يَبْدُو عَلَيْهِ الْإِخْتِيَارُ فِي مَسِيرَتِنَا الرُّوحِيَّةِ. لِذَا، فِي الرِّسَالَةِ الثَّانِيَةِ عِنْدَمَا يَتَوَجَّهُ إِلَى الْأَشْخَاصِ نَفْسِهِمْ، فَإِنَّهُ يَذْكَرُهُمْ بِمَدَى أَهْمِيَّةِ التَّيَقُّنِ مِنْ اخْتِيَارِهِمْ. إِذَا، أَنَا مُقْتَنِعٌ مِنْ أَنَّهُ يُمَكِّنُنَا أَنْ نَعْلَمَ مَا إِذَا كُنَّا فِي حَالَةِ النِّعْمَةِ. لَكِنْ مَا عَلَيْنَا فَعَلُهُ هُوَ أَنْ نَتَعَلَّمَ أَنْ نُمَيِّزَ الْفُرْقَ بَيْنَ الْيَقِينِ الْحَقِيقِيِّ وَالْيَقِينِ الزَّائِفِ، لِأَنَّنا نُدْرِكُ أَنَّهُ يُوجَدُ يَقِينٌ زَائِفٌ. وَإِنْ كَانَ يُوجَدُ يَقِينٌ حَقِيقِيٌّ، فَعَلَيْنَا أَنْ نُمَيِّزَ الْفُرْقَ، وَهَذَا مَا سَنَتَكَلَّمُ عَنْهُ فِي الْمَحَاضِرَاتِ الْمُقْبِلَةِ.

الدكتور آر. سي. سبرول هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو (St. Andrews Chapel) في مدينة ساتفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College). وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" و"أدهشني الألم".